عبدالرحمن بن فيصل وأسرته
بعد نهاية حكمه

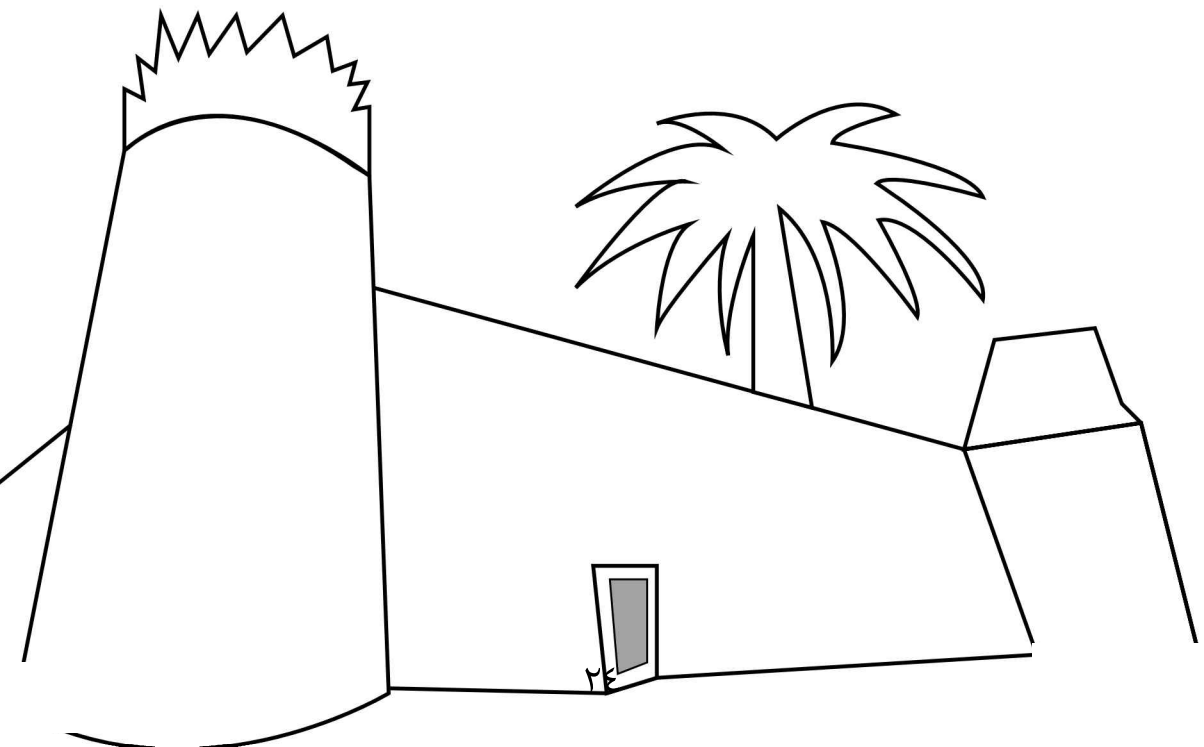

كان الإمام عبدالرحمن بن فيصل قد أدرك ضعف موقفه العسكري أمام الأمير محمد بن رشيد بعد معركة المُلَيْداء التي وقعت سنة ١٣٠٨هـ، والتي انتصر فيها ذلك الأمير انتصارًا عظيمًا على أهل القصيم ومن وقف معهم[١]. ولذلك أخذ الإمام عبدالرحمن ما أمكنه أخذه من ممتلكاته في الرياض، وخرج بأسرته من هذه البلدة بحثًا عن مأوى أكثر أمنًا. واتَّجه إلى المناطق الواقعة بين يبرين والأحساء لبُعْدها عن متناول ابن رشيد، ولوجود فئات من القبائل المتعاطفة معه والمناوئة لخصمه، مثل العُجْمان وآل مُرَّة[٢].

على أن الإمام عبدالرحمن أدرك صعوبة حياة الصحراء على نساء أسرته وأطفالها. فبعث ابنه عبدالعزيز إلى الشيخ عيسى بن خليفة، حاكم البحرين، يطلب منه أن يقبل سكن هؤلاء لديه. فَرحَّب ذلك الشيخ بالطلب، وذهب الأطفال والنساء من أسرة الإمام السعودي إلى البحرين ليلقوا كرم الضيافة هناك[٣].

وكان التحاق إبراهيم بن مُهنَّا، أخي حسن بن مُهنَّا أمير بُرَيدة المشهور، بالإمام عبدالرحمن ابن فيصل بعد معركة المُلَيْداء من الأمور التي شَجَّعت هذا الإمام على إعادة نشاطه ضد ابن رشيد، لكن النصر الذي حَقَّقه هذا الأخير عليهما في معركة حُرَيْملاء، سنة ١٣٠٩هـ، بَدَّد الكثير من آمال الإمام في جدوى مواصلة نشاطه العسكري. ويقال: إن المُتصرِّف العثماني في الأحساء بعث مندوبًا

---

(١) ذكر تفصيل تلك المعركة في كتاب عبدالله بن محمد البسام، **تحفة المشتاق في أخبار نجد والحجاز والعراق**، صورة من نسخة نقلها عن الأصل نور الدين شريبة عام ١٣٧٥هـ، الورقتان ١٦٣ب و١٦٤أ، ومقبل بن عبدالعزيز الذكير في مسودة تاريخ لم يحدِّد مؤلفه له عنوانًا. والمستعمل في هذا الكتاب ثلاث نسخ بينها اختلاف نوعًا ما. الأولى من مكتبة كلية الآداب في جامعة بغداد، رقم ٥٦٩. والثانية من مكتبة الشيخ عبدالله بن عبدالرحمن البسام. والثالثة من نسخة لدى أقارب مؤلفه. انظر في هذا الأمر النسخة الأولى ص ص ٩٥ - ٩٧.

(٢) الزركلي، ج١، ص٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ج١، ص٦٣.

اجتمع بالإمام قرب بلدة المبَّرز، وأنه عرض عليه ولاية الرياض بشرط أن يعترف بسيادة الدولة العثمانية عليه، وأن يدفع مبلغًا من المال إليها كل سنة رمزًا لتبعيته لها. لكنه لم يقبل ذلك العرض[1]. وقد عَلَّل عدم قبوله بخشيته من أن ينقلب عليه أنصاره[2].

ومن المُرجَّح أن ما قيل صحيح. فقد كان من صالح الدولة العثمانية أن تكون نجد مُقسَّمة، لأن ذلك مما يضعف قُوَّة هذه المنطقة. وهي بهذا التقسيم تضمن تنافس الحاكمين النجديين على إظهار المُودَّة لها. وبالإضافة إلى ذلك، فإن في كون الإمام عبدالرحمن تابعًا لها ضمانًا بعدم حدوث هجمات منه أو من أنصاره على منطقة الأحساء والقطيف المهُمَّة بالنسبة لها، وضمانًا بعدم استغلال عَدوَّتها بريطانيا للموقف وتَبنِّي قَضيَّة الإمام منافسة لها في المنطقة. وما أبداه الإمام عبدالرحمن من تعليل لعدم قبوله العرض العثماني أمر أملاه، فيما يبدو، جَوُّ المقابلة أو الاجتماع. لكن من المُرجَّح أن سبب الرفض ما قاله الباحث نخلة؛ وهو عدم ثقة الإمام في الدولة العثمانية، وعدم ثقته بإخلاص العشائر النجدية له بعد انتصارات ابن رشيد المُتكرِّرة[3]. أما تعليل ابن هذلول عدم قبول الإمام عبدالرحمن بالعرض بأنه «رأى من الهون أن يخضع للأتراك أو يقبل مساعدتهم، ويجعل لهم نفوذًا في بلاده»[4] فتعليل ضعيف. ذلك أن الأئمة السعوديين؛ بدءًا بعبدالله بن سعود، لم يرفضوا مبدأ قبول السيادة العثمانية على بلادهم وإن كان اعترافهم بتَبعيتِّهم للعثمانيين قد اختلف من

(١) آل عبدالقادر، ج١، ص١٨٠؛ الزركلي، ج١، ص٦٢؛ أمين الريحاني، **تاريخ نجد وملحقاته**، ط٥، الرياض، ١٩٨١م، ص١٠٦؛ سعود بن هذلول، **تاريخ ملوك آل سعود، الرياض، ١٣٨٠هـ، ص٥٣**.

(٢) الزركلي، ج١، ص٦٢.

(٣) نخلة، ص١٩٨.

(٤) ابن هذلول، ص٥٣.

حيث التطبيق العملي من إمام إلى آخر. ثم إن إقامة الإمام عبدالرحمن نفسه في الكويت التابعة للعثمانيين رسميًّا حينذاك، وتَسلُّمه مُرتَّبًا منهم دليل إضافي على ضعف ذلك التعليل.

وعلى أَيِّ حال فإن الإمام عبدالرحمن حاول أن يَتَّخذ من الكويت مُستقرًّا له بعد حدوث ما حدث له في نجد. ولَعلَّ من أهم أسباب اختياره لتلك البلاد أنها بعيدة نسبيًّا عن خطر الأمير محمد ابن رشيد، وأنها أصبحت ملجأ لمن فَرَّ من أهل نجد عن بلدانهم؛ خاصة أهل القصيم، خوفًا من ذلك الأمير، وأن علاقات النجديين التجارية بها كانت قوية حينذاك. ومن هنا فإن وجود الإمام عبدالرحمن فيها يتيح له فرصة الاطلاع على أحوال نجد من خلال حركة تجارها، كما يتيح له فرصة الاتِّصال بمن فيها من المناوئين لابن رشيد. لكن حاكم الكويت لم يقبل مجيء الإمام عبدالرحمن إلى بلاده[1]. ومن المُرجَّح أن عدم قبول ذلك الحاكم بمجيئه كان بإيعاز من العثمانيين.

ولما أخفق الإمام عبدالرحمن في الذهاب إلى الكويت مكث في الجهات، التي سبق أن مكث فيها قبل معركة حُرَيْملاء، عدة شهور. ثم أقام شهرين في قطر[2]. على أن الدولة العثمانية أدركت آخر الأمر أن وجوده في الكويت يضمن لها مراقبة حركاته، ويحول بينه وبين العمل مع بعض القبائل التي يصعب على مُتصرِّفها في الأحساء والقطيف أن يطاردها أو يَحدَّ من نشاطها. فاستقدمه ذلك المُتصرِّف، واتَّفق معه على أن يقيم في الكويت، وأن تدفع له الدولة العثمانية

(١) المصدر نفسه، الصفحة ذاتها؛ الزركلي، ج١، ص٦٥؛ آل عبدالقادر، ج١، ص١٨٠؛ الذكير، نسخة بغداد، ص٩٨؛ الريحاني، ص١٠٦؛ جون فيلبي، وترجمة عنوان كتابه: **العربية السعودية**، بيروت، ١٩٥٥م، ص٢٣٥.

(٢) الريحاني، ص١٠٦؛ ابن هذلول، ص٥٣؛ آل عبدالقادر، ج١، ص١٨٠، الزركلي، مصدر سبق ذكره، ج١، ص٦٧.

مُرتَّبًا شهريًّا[1]. وما دام قد تَوصَّل مع مُمثِّل تلك الدولة على إقامة في الكويت، فإنه لم يبق لدى حاكم هذه البلاد مانع من قبول إقامته فيها. فانتقل الإمام إليها مع أسرته[2].

وكان حاكم الكويت، حينما انتقل إليها الإمام عبدالرحمن بن فيصل، محمد بن صباح، الذي كان لأخيه جَرَّاح تأثير كبير عليه في تسيير دفة الحكم. أما أخوهما الثالث، مبارك، فكانت له قيادة القوات المحاربة في البلاد[3]. ونتيجة لخلاف بين محمد وجَرَّاح من جهة ومبارك من جهة ثانية وثب هذا الأخير على أخويه، وقتلهما، وتَولَّى الحكم في البلاد؛ وذلك عام ١٣١٣هـ[4].

ولقد بذل يوسف بن إبراهيم، خال أولاد محمد بن صباح، جهودًا مُكثَّفة للثأر من مبارك. فاستعدى السلطات العثمانية في العراق عليه، لكن العثمانيين رأوا أن تَدخُّلهم العسكري في الكويت لا مُبرِّر له، وأنه قد يَضرُّ بمصالحهم في المنطقة. فامتنعوا عن مساعدة ابن إبراهيم. فذهب إلى الأراضي الإيرانية، وجمع جيشًا هناك، وأقبل به بحرًا إلى الكويت. لكن أخبار تَحرُّكه وصلت إلى هذه البلاد قبل اقترابه منها، ففشلت خُطَّته، وعاد أدراجه[5]. ثم حاول أن

---

(١) المصدر الأخير نفسه، الصفحة ذاتها؛ آل عبدالقادر، ج١، ص١٨٠؛ الريحاني، ص١٠٦. وقد ذكر كل من الزركلي والريحاني أن ذلك المرتَّب كان ستين جنيهًا.

(٢) الريحاني، ص ص ١٠٦ و١١٤؛ آل عبدالقادر، ج١، ص١٨٠؛ الزركلي، ج١، ص٦٧؛ فيلبي، ص٢٣٥.

(٣) الذكير، نسخة بغداد، ص٩٩. كان مبارك قائدًا للجيش الذي انطلق برًّا من الكويت صوب القطيف، سنة ١٢٨٨هـ، ضمن الحملة العثمانية التي استولت على الأحساء والقطيف في تلك السنة. انظر آل عبدالقادر، ج١، ص١٧١.

(٤) من أحسن من فصَّل ذلك الخلاف ونتائجه حسين خزعل، **تاريخ الكويت السياسي**، بيروت، ١٩٦٢م، ج١، ص ص ١٥٣ - ١٦٢، والذكير، نسخة بغداد، ص٩٨. ومما يجعل لكلام هذا الأخير أهميَّة أنه كان ضيفًا عند يوسف بن إبراهيم عند وقوع تلك الحوادث. ويلقى هذان المؤرخان مسؤولية كبيرة على محمد وجرَّاح في وقوع الخلاف وعدم التوصل إلى حلِّه.

(٥) المصدر الأخير نفسه، ص١٠٣.

يغري كُلًّا من الأمير محمد بن رشيد والشيخ قاسم بن ثاني بالوقوف معه. لكن ابن رشيد لم يستجب لإغرائه[1]. ولَعلَّ هذا الأمير قد أدرك مغزى عدم إقدام الدولة العثمانية ذاتها على التَّدخُّل العسكري في الكويت، فلم يرد أن يقدم على ما أحجم عنه من هو أقوى منه، وأدرى بالظروف السياسية المحيطة بتلك البلاد. ولَعلَّه، أيضًا، رأى أن قيامه بأي عمل عسكري ضد مبارك سيدفعه إلى تشجيع أهل نجد الموجودين في الكويت- وفي طليعتهم آل سعود- على بدء نشاط ضده. وهذا سَيؤدِّي إلى فتح باب كان غَنيًّا عن فتحه.

أما قاسم بن ثاني فقد هَمَّ بمساعدة ابن إبراهيم. لكنه أدرك آخر الأمر ضعف إمكاناته، فَفضَّل قبول المساعي التي بذلت للحيلولة دون تَورُّطه بنشاط عسكري ضد مبارك بن صباح[2].

وكان مجيء عبدالعزيز بن رشيد إلى الحكم في نجد، عام ١٣١٥هـ، فرصة ليوسف بن إبراهيم كي يحاول إثارة ذلك الحاكم الجديد ضد أمير الكويت. ويبدو أن نوعًا من الخشية قد دَبَّ في نفس هذا الأمير. فكان هذا من بين عوامل إقدامه على عقد معاهدة حماية مع بريطانيا، التي كانت حريصة حينذاك على إبعاد الكويت عن نفوذ أيِّ دولة أخرى؛ خاصة ألمانيا[3]. وحاول مبارك أن يتبع الأسلوب السياسي الذي اشتهر به في كثير من الأحيان. فأوعز إلى من كانوا في بلاده من زعماء نجد المناوئين لحاكمها أن يغادروا الكويت، ويقوموا بنشاط ضد المناطق التابعة لابن رشيد. وخرج أولئك الزعماء بقيادة

---

(١) المصدر نفسه، ص١٠٤.

(٢) المصدر نفسه، ص ص ١٠٤ - ١٠٦.

(٣) يمكن معرفة الظروف الخارجية المحيطة بعقد هذه المعاهدة مما كتبه فاسيلييف، **تاريخ العربية السعودية**، ترجمة خيري الضامن وجلال الماشطة، موسكو، ١٩٨٦م، ص ص ٢٤٣ - ٢٤٨.

عبدالرحمن بن فيصل، وهاجموا إحدى الفئات القبلية في إقليم سُدَير[1]. على أن مباركًا أرسل، في الوقت ذاته، إلى ابن رشيد يخبره أنه أخرج الزعماء النجديين من بلاده رغبة في تحسين العلاقات معه. وكان من سوء حظه أن رسوله لم يصل إلى ابن رشيد إلا وقد سبقه إليه من أنبأه بأن مباركًا سَلَّح أولئك الزعماء لمهاجمة نجد. فاستشاط ابن رشيد غضبًا لاقتناعه بأن مباركًا كان يخادعه. وعاد رسول هذا الأخير إلى الكويت يحمل معه تهديد حاكم ونجد ووعيده. فما كان من مبارك إلا أن أرسل مندوبًا إلى من أوعز إليهم من قبل بمغادرة بلاده يطلب منهم أن يعودوا إليها[2]. واشتدت حدَّة التوتُّر بين ابن رشيد وابن صباح، مما أدَّى إلى معركة الصَّريف المشهورة.

في الشهور الأولى من عام ١٣١٨هـ أخذ مبارك بن صباح يحشد الحشود في الجَهْراء استعدادًا لمواجهة ابن رشيد. وراح هذا الأخير يجمع قواته لتحقيق مآربه، ثم توجه إلى الجهات الشمالية الشرقية من جزيرة العرب. على أن من الملفت للنظر أن مباركًا أذن لحشوده أن تتفرق بعد جمعها[3]. ومن المحتمل أنه قد غلب على ظنِّه حينذاك أن ابن رشيد لن يهاجمه. وبلغ ذلك الأمر ابن رشيد، فانتهز الفرصة، وهجم على زعيم قبيلة المنتفق، فغنم منها الشيء الكثير. ثم انصرف إلى نجد[4]. وظن مبارك أن انصرافه ناتج عن شعور بالضعف. فجمع قواته من جديد، وانضم إليه فئات من قبائل متعدِّدة، بينها المنتفق والعُجْمان ومُطَيْر وآل مُرَّة والعوازم. وأصبح عدد جيشه ومن تحالف معه آلافًا. ثم انطلق من بلاد صوب نجد ومعه عبدالرحمن بن فيصل، وابناه عبدالعزيز

(١) الزركلي، ج١، ص٧٣.

(٢) إبراهيم بن محمد القاضي، تاريخ، بخط مؤلفه الذي كتبه بالعامية النجدية، ص٥.

(٣) المصدر نفسه، ص٦؛ ابن هذلول، ص٥٤.

(٤) القاضي، ص٦.

ومحمد، وزعماء من أسرتي الإمارة في بريدة وعنيزة. ومضت تلك القوات في انطلاقتها حتى وصلت إلى مكان يُسمَّى الشَّوكي[١].

ومما تتفق المصادر عليه أن عبدالعزيز بن عبدالرحمن بن فيصل (الملك عبدالعزيز) سار على رأس قوة من الشَّوكي إلى الرياض أملًا في انتزاعها من أمير ابن رشيد عليها[٢]. ومن تلك المصادر ما يشير إلى أن مسيره كان باقتراح من عنده ومبادرة منه[٣]. ومنها ما يوحي بأن ذلك المسير كان جزءًا من خطَّة عامة لقادة الجيش[٤]. وسواء أكان هذا أم ذاك فإن أولئك القادة قد رأوا صواب فتح جبهات متعددة ضد خصمهم. ولقد تمَّكن عبدالعزيز من الوصول إلى الرياض بعد يومين فقط من انطلاقته من الشَّوكي[٥]. ونجح في دخول هذه البلدة دون صعوبة. ولعلَّ مما يسَّر ذلك أن الأمير محمد بن رشيد سبق أن هدم أسوارها، أو أكثر أسوارها[٦]. ثم راح عبدالعزيز يحاصر أمير ابن رشيد عليها، عبدالرحمن بن ضَبْعان، الذي اعتصم بقصر المصمك[٧].

أما أكثرية الجيش الزاحف من الكويت مع مبارك بن صباح فواصلت سيرها نحو القصيم. ولما اقتربت من مدن تلك المنطقة سار آل مُهنَّا إلى بُرَيدة،

---

(١) الشَّوكي: موضع يبعد عن الرياض بحوالي مئة وستين كيلًا شمالًا بمَيْل قليل نحو الشرق.

(٢) ابن هذلول، ص٥٥؛ الزلكي، ج١، ص٧٥؛ الريحاني، ص١١٨؛ الذكير، نسخة البسام، ٢٤١؛ البسام، ورقة ٦٧أ؛ إبراهيم بن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد...**، نشر دار اليمامة في الرياض، ١٣٨٦هـ، ص٢٠٠.

(٣) الريحاني، ص١١٨؛ الزركلي، ج١، ص٧٥.

(٤) ابن هذلول، ص٥٥. على أنه ذكر أن قادة الجيش اتَّفقوا على ذلك قبل بداية زحفهم من الكويت. ويبدو أنه لم يتمَّ شيء من ذلك قبل الزحف.

(٥) الزركلي، ج١، ص٧٥.

(٦) ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث**، ص١٩٧.

(٧) ابن هذلول، ص٥٥.

كما سار آل سُلَيِّم إلى عُنَيزة. ودخل كُلٌّ من الفريقين بلدته دون مقاومة من أهلها[١]. ذلك أن أكثر سكانهما كانوا يُكنُّون مَودَّة لأسرتي إمارتيهما السابقتين.

وما إن علم ابن رشيد بوصول ابن صباح ومن معه إلى القصيم حتى توجه إلى هناك. ولما اقترب من بريدة هَبَّ مبارك ومن معه للقائه. وكان جيش هؤلاء يفوق جيشه من حيث العدد بدرجة كبيرة. لكن حينما التقى الجيشان في الصَّريف انتصر ابن رشيد على خصومه انتصارًا عظيمًا[٢]. ثم تَتبَّع فلولهم بعد المعركة حتى كاد يبيدهم جميعًا[٣]. وعاد مبارك إلى الكويت يَجرُّ أذيال الخيبة. أما عبدالرحمن بن فيصل فَاتَّجه إلى الرياض. وحين اقترب منها بعث إلى ابنه عبدالعزيز من اخبره بنتيجة معركة الصَّريف. فخرج الابن من البلدة ليمضي مع والده إلى الكويت. وكما كان مُتوقعًا انسحب آل مُهنَّا من بُرَيدة، وآل سُلَيِّم من عُنَيزة، عائدين إلى الكويت أيضًا[٤]. وكانت معركة الصَّريف في شهر ذي القعدة من عام ١٣١٨هـ/١٩٠١م[٥].

*****

(١) ابن عيسى، **تاريخ بعض الحوادث**، ص٢٠٠؛ البسام، ورقة ١٦٧أ؛ ابن هذلول، ص٥٥.

(٢) البسام، ورقة ١٦٧ب؛ القاضي، ص٧؛ الريحاني، ص١١٩؛ الزركلي، ج١، ص٧٦، ابن هذلول، ص٥٦.

(٣) القاضي، ص٧؛ ابن هذلول، ص٥٦.

(٤) القاضي، ص٧؛ ابن هذلول، ص٥٧.

(٥) القاضي، ص٧؛ البسام، ورقة ١٦٧ب.